# معالم التصوف السني من خلال كتابات الشيخ عثمان بن فوديو

ذ. أحمد محمود

عضو فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بجمهورية الكاميرون

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاهم وتبع سنتهم إلى يوم الدين.

تشكل تزكية النفس مقصدا مهما من مقاصد الإسلام، وقد تضافرت أدلة كثيرة من القرآن والسنة على إبراز أهميتها والتنبيه على مخاطر إهمالها، ويكفي في إقرار ذلك ما ذكره الله عز وجل في سورة الشمس حيث استهل السورة بالقسم المطول، ليقرر فوز من زكاها وخسران من أضلها، يقول- جل شأنه-: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله مبرزا أهمية علم التزكية: "ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى:

﴿قد أفلح من زكاها﴾، وإهمالها هو المراد بقوله ﴿وقد خاب من دساها﴾[1].

وقد حرص علماء التزكية على أن تكون المعالجة المذكورة قائمة على الكتاب والسنة، وما أثر عن السلف مما هو مستمد من هذين المصدرين، ومن هذا المنطلق دعوا إلى ضرورة وزن مناهج التزكية ووسائلها بميزان الشرع، وقرروا في هذا الباب أن التزكية لا تعطي ثمارها المرجوة ما لم تكن متوافقة مع مقتضيات الشرع.

وقد عرف القطر المغربي والأندلسي علماء مصلحين جاهدوا في هذا الجانب، لعل أبرزهم الإمام الشاطبي رحمه الله، وقد ذكر في كتابه"الاعتصام" ما جاء عن الصوفية في ذم البدع وأهلها متذرعا بقوله: "وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر، وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية، لأن كثيرا من الجهال يعتقدون فيهم أنهم متساهلون في الاتباع، وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقتهم: اتباع السنة، واجتناب ما خالفها"[2]. وكان في نيته إن أمد الله عمره أن يؤلف مؤلفا يحتذى به في بيان ما صح من مذاهب القوم، حيث قال: "وفي غرضي إن فسح الله في المدة وأعانني بفضله، ويسر لي الأسباب أن ألخص في طريقة القوم أنموذجا يستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقولوا عليهم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم"[3].

ثم أفاض في النقل عنهم ما يبرز التزامهم بالكتاب والسنة، إلى أن قال رحمه الله: "وقد نقلنا عن جملة ممن اشتهر منهم ينيف على الأربعين شيخا، جميعهم يشير أو

1- إحياء علوم الدين، 3/ 49.

2- الاعتصام، (1/ 89).

3- نفسه .(1/ 90).

يصرح بأن الابتداع ضلال والسلوك عليه تيه، واستعماله رمي في عماية، وأنه مناف لطلب النجاة، وصاحبه غير محفوظ، وموكول إلى نفسه، ومطرود عن نيل الحكمة، وأن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة؛ مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرق من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة"[1]. فكان لجهوده رحمه الله أثر في تنقية التصوف مما علق به من البدع والمنكرات.

وفي السياق الإفريقي لعب هذا الدور العالم الجليل الشيخ عثمان بن فوديو، مؤسس الخلافة الإسلامية ببلاد هوسا، زعيم لأول حركة إصلاحية ببلاد السودان خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وقد امتد تأثيرها على نطاق واسع.....، ويكفي أنه أثرى المكتبة الإسلامية بما يربو عن مائة مؤلف في مختلف المجالات[2]، وهذا العدد قريب مما ذكره ابنه الشيخ محمد بلو؛ إذ أشار- رحمه الله- إلى أن مصنفات والده تربو على نيف ومائة مؤلف، وفي هذا القدر المذكور كفاية لمن تأمل[3]. وبالجملة فالوصف يقصر عن مزاياه، وهو شيخ علماء وقته [4].

انتهت إليه الإمامة، وضربت إليه آباط الإبل شرقا وغربا، وهو علم العلماء ورافع لواء الدين، أحيا السنة وأمات البدعة ونشر العلوم...[5]، وكان يخرج إلى الآفاق والبلدان للإفادة والوعظ[6]. وكان الشيخ- رحمه الله- مهتما بالتصوف، وقد تجلى هذا الاهتمام في كون التصوف من العلوم التي يدرسها في مجالسه، ويربي المريدين والسالكين[7].

---

1- نفسه (1 /98).

2- الإسلام والدولة في إفريقيا جنوب الصحراء، الفكر السياسي عند عثمان بن فودي خلال القرن 19م (ص:12) بتصرف.

3- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (ص:210).

4- نفسه (ص: 66).

5- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (ص:210).

6- نفسه (95).

7- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (ص94 - 95).

وقد صنف مؤلفات بين فيها التصوف الصحيح القائم على الكتاب والسنة الذي هو مقام الإحسان الوارد في حديث جبريل، حيث شكلت تلك المؤلفات أساسا ورافدا مهما للتصوف، الذي ساد في البلاد التي امتدت إليها خلافة صكتو.

ومن هذا المنطلق، توجهت بالعناية إلى مراجعة تراثه التربوي بغية استجلاء معالم ذلك التصوف الذي دوّنه وربى عليه تلاميذه، وتضمين تلك المعالم في مقالة بعنوان: "معالم التصوف السني في كتابات الشيخ عثمان بن فوديو"، اغتناما لفرصة النشر التي تتيحها لنا مجلة المؤسسة المباركة مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، وقد حفزني لاغتنام هذه الفرصة موضوع العدد لهذا العام الذي يعالج خطة تسديد التبليغ التي تستهدف إرساء مقومات الحياة الطيبة، ومن المعلوم أن التزكية تقع ضمن هذه المقومات.

ونظرا للمنهجية التي يخضع لها تحرير المقالة، فإنه يتعسر استقصاء تلك المعالم، لذا سأكتفي بذكر بعض المعالم التي تعكس أسس التصوف ومنابعه الأصيلة.

وقد انتظمت المقالة في مقدمة وثلاثة معالم وخاتمة، كل معلم بمثابة محور أو مبحث مستقل، ورتبتها على النحو الآتي: - مقدمة تحدثت فيها عن الأساس أو الركيزة التي انبثقت منها المعالم، وهي التصوف السني الجنيدي المبني على الكتاب والسنة.

- **المعلم الأول: العناية بالأوراد والأذكار.**

- **المعلم الثاني: العناية بالأخلاق.**

- **المعلم الثالث: القدوة.**

- **الخاتمة .**

## مقدمة حول التصوف السني الجنيدي المبني على الكتاب والسنة.

يعتبر التصوف السني الجنيدي المبني على الكتاب والسنة هو الأساس لتصوف الشيخ عثمان بن فوديو، ومنه يستقي روافده، وعنه تفرعت كل العناصر التي تشكل منهج الشيخ في التزكية، فقد ورد ما يبين هذه الركيزة في قوله: " الولاية وشروطها مبنية على ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية إعدام الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك الرخص، قال أبو القاسم الجنيدي: الطرق كلها مسدودة إلا من اقتفاء الرسول صلى الله عليه وسلم"[1].

وتأسيسا على ذلك يقرر الشيخ ناقلا عن الإمام زروق: "أن الفقه والأصول شروط فيه، والمشروط لا يصح دون شرطه، فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، فلا فقه إلا بتصوف إذ لا حقيقة إلا بالعمل ولا عمل إلا بصدق التوجه"[2].

وقد تكرر التأكيد على هذه الركيزة بعبارات متعددة، لعل أبرزها ما نقله من الإمام زروق في بيان أصول التصوف التي هي: "اتباع السنة في الأقوال والأفعال، وتحقيق السنة بالتحفظ، وحسن الخلق وهو معاملة كل أحد بما يسره إلا فيما يخالف الشرع" [3].

وهذه الركيزة بمثابة ميزان توزن به مناهج التزكية، وقد أكد غير واحد من علماء السودان على اعتبارها أساسا للتصوف، يقول الشيخ محمد الكنتي: " اعلم أن أصل هذه الطريقة ومبناها إنما هو سيرته صلى الله عليه وسلم من أقواله وأحواله وتقريراته المفسرة لنص الكتاب الذي جاء به من ربه، ثم مضى عليه عمل الصحابة من بعده، ثم ما انعقد عليه إجماع سلف أمته من بعدهم.....، ثم أضاف: أهل الصوفية يتوقفون عند كل قول أو فعل حتى يعرضوه على كفة ميزان الكتاب

1- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة أصول الولاية، (ص: 3).

2- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، رسالة أصول الولاية، (ص: 6).

3- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة أصول الولاية (ص: 8).

والسنة لأنه من جملة الشريعة"[1] .

فالتصوف باعتباره ممارسة تشتمل على أعمال تعبدية، وتتوقف صحتها على توافر عنصري الإخلاص والمتابعة، والمتابعة مبناها الكتاب والسنة، فالتقيد بهذه المتابعة هو المسلك الذي يصل به المريد إلى مراتب عالية من تزكية النفس وتهذيبها، وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي: إن كيمياء السعادة التي هي تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى، وطلبها لا يكون إلا من حضرة النبوة، ومن طلبها من غير ذلك فقد أخطأ الطريق"[2]، لأن علم وعمل جميع المخلوقات بغير فتوى المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ضلالة وسبب للبعد عن الله تعالى [3]. فالمراعاة التامة لهذه المتابعة هي الضامنة لصحة السلوك والوصول إلى الله- عز وجل-.

ثم لا يقف اهتمام الشيخ بالكتاب والسنة في حدود التصوف، بل يوضح- رحمه الله-: أن هذا الاتجاه هو الذي يطبع باقي الثوابت من العقيدة والمذهب الفقهي، وهو ما جعل الانسجام يسود بين هذه الثوابت، يقول رحمه في هذا السياق: "ومذهبهم في الاعتقادات مذهب السلف في اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه من غير عرض لكيف ولا تأويل، ومذهبهم في الأحكام مذهب الفقهاء المحررين غير أنهم يأخذون من المذاهب بما يوافق الحديث ليجمعوا بين نور الاقتداء ونور الاهتداء مع تقيدهم للمذهب وعدم مخالفتهم للآخر أو المشهور إلا من ضرورة .ومذهبهم في الفضائل مذهب المحدثين.."[4] . وهو ما يبين مدى التناسق الموجود بين منهج التزكية والعقيدة والمذهب الفقهي، وقد انبثقت هذه الثوابت كلها من الكتاب والسنة، وهذا الأمر سمة مشتركة بينها.

1- جنة المريد (2/ 317) بواسطة مجلة العلماء الأفارقة، العدد الثالث، (ص: 85).

2- مجموعة رسائل الإمام الغزالي كيمياء السعادة (ص: 122).

3- خلاصة التصانيف في التصوف ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي (ص: 108).

4- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة أصول الولاية (ص: 6).

## المعلم الأول: العناية بالأذكار والأوراد

يحتل الذكر موقعا معتبرا في منازل السير إلى الله- عز وجل-، وقد أبرزه ابن القيمز - رحمه الله - بقوله: "منزلة الذكر: وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائما يترددون، والذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب" [1].

ذلك "أن العبد يصل إلى حقيقة العبودية أكثر فأكثر كلما تعمق في معنى الذكر، فكلما ترسخ الذكر في قلبه وتعمق في مشاعره كانت معرفته بالله أعمق؛ ولذلك كان الذكر مناط عبادة القلب" [2].

وقد تضافرت الآيات القرآنية في الحث على الذكر، قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[3]، ويوضح الله تعالى خطر البعد عن ذكره سبحانه، بقوله عز وجل: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾[4]، وفي موضع آخر يقول سبحانه: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[5].

1- مدارج السالكين (2/ 395).

2- التصوف من الإيمان إلى الإحسان (ص: 262).

3- سورة البقرة آية 152.

4- سورة الزخرف آية 36.

5- سورة طه آية 126.

وقد أعلى النبي- صلى الله عليه وسلم- مكانة الذكر فقال ذات يوم مخاطبا أصحابه: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى» قال معاذ بن جبل: «ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله"» [1].

ويلحظ القارئ لرسائل الشيخ العناية التي أولاها للأوراد والأذكار؛ إذ يعد- رحمه الله- ضبط الأوقات بالأوراد من أصول المعاملات ليحصل للمريد الحضور من الله عز وجل[2].

ويمكن تقسيم الأوراد إلى أوراد عامة وأوراد خاصة، فالعامة أشار إليها الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: "وأما الأذكار التي يستعملها أهل التصوف في مقاصدهم فكثيرة لا تنضبط، منهم من كان ذكره ( الله)، ومنهم من كان ذكره ( لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ومنهم من كان ذكره ( سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله)، ومنهم من كان ذكره الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهي أنفع الأذكار في تقوية النفوس لأنها كالماء البارد في إحيائها بعد الكسل، قال غير واحد من العلماء: إن الصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- توصل العبد إلى ربه، وتقوم له مقام الشيخ المربي إن فقده ببركة النبي- صلى الله عليه وسلم" [3].

والخاصة أوردها ابنه محمد بلو رحمه الله في كتابه المسمى بإنفاق الميسور، وذكر أنه ورد الطريقة القادرية، ويعتبره من أجل الأوراد لأنه يغني عن كل ورد، ولا يغني ورد عنه، يبتدئ هذا الورد بالحسبلة (مائتين)، والاستغفار (مائتين) ولا إله إلا الله (مائة)، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم (مائة)[4] .

1- سنن الترمذي رقم 3377. باب ما جاء في فضل الذكر.

2- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة أصول الولاية ( ص: 10).

3- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي الجزء الثاني رسالة أصول الولاية (ص: 23).

4- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (ص: 222).

وهذه الأوراد جاءت نصوص كثيرة بخصوصها للتنبيه على أهميتها والحث على التزامها، من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: " من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان، يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه "[1]،

وقد ذكر النبي-صلى الله عليه وسلم-: أن كلمة التوحيد هي خير كلمة قالها -صلى الله عليه وسلم- وكذلك النبيون قبله: " خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير "[2].

أما الحسبلة، فقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما "حسبنا الله ونعم الوكيل"، «قالها إبراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد- صلى الله عليه وسلم- حين قالوا: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ ﴿فزادهم إيمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[3].

ثم بين رحمه الله أن أنفع الأذكار في تزكية النفوس هي الصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم-، فهي خير زاد للمسلم في كل الأزمنة والأمكنة، بها يقوي رابطته بالنبي- صلى الله عليه وسلم-، وبها يستمطر الرحمات والبركات من السماء، فهي سر الفضائل التي نالها أولياء الله، وكانت سببا في معراجهم إلى الدرجات العليا في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وللصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- فضائل متعددة، منها:

**1 –** موافقة الله تعالى وملائكته في صلاتهم على النبي- صلى الله عليه وسلم- كما

1- صحيح البخاري (رقم 3293).

2- سنن أبي داود (رقم 3585).

3- صحيح البخاري (رقم 4563).

ورد في الآية الكريمة: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾[1].

2 – أنها وسيلة لمغفرة الذنوب، كما ورد في سنن النسائي مرفوعا «من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات»[2].

3 - أنها وسيلة للقرب من النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة»[3].

4 – أنها تحمل المسلم على التخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم والترفع عن الرذائل، وتحثه على الفضائل، وترتقي به من وهاد الدنيا إلى سماوات المحبة، فيحيا ساميا عن أوضار المخلوقات فانيا في محبة الخالق وسيد المخلوقات[4]. ولهذا نقل الشيخ عن غير واحد من العلماء أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم توصل العبد إلى ربه، وتقوم له مقام الشيخ المربي إن فقده ببركة النبي- صلى الله عليه وسلم-[5].

## المعلم الثاني: العناية بالأخلاق.

إن المطالع لرسائل الشيخ عثمان، تتجلى له عنايته الكبيرة بتصوف الأخلاق والرقائق أكثر من تصوف الحقائق، فقد سمى القسم الأول بالتصوف الذي للتخلق، والثاني بالتصوف الذي للتحقق[6]، فاستغرق حديثه عن الأول -مثلا- بضع صفحات في رسالة عمدة العلماء، بينما لم يتجاوز الثاني نصف صفحة، مما يوحي

1- سورة الأحزاب (آية 56).

2- سنن النسائي (رقم 1297).

3- سنن الترمذي (رقم 484).

4- التصوف من الإيمان إلى الإحسان (ص:275 - 276).

5- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة أصول الولاية (ص: 23).

6- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الأول، رسالة عمدة العلماء (ص: 308).

بالعناية الفائقة التي يوليها لتصوف الأخلاق والرقائق.

وهذا المنحى الأخلاقي في التصوف شبيه بما ساد واشتهر من عامة أعلام التصوف المغربي، و من مدارس التصوف التي تشكلت في المغرب، يقول الشيخ علال الفاسي بعد تقسيم التصوف إلى تصوف أهل الحقائق وتصوف الأخلاق والرقائق: وتصوف الأخلاق هو الذي استقر عليه عامة المتصوفين المغاربة، وكان له الأثر الفعال في مجتمعنا الإسلامي المغربي[1] .

وقد حدد النبي- صلى الله عليه وسلم- الغاية الأولى من بعثته في مكارم الأخلاق، حيث قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [2]، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المسلم أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت الظروف [3].

ومن هذا المنطلق اتجه كثير من أعلام التصوف في تعريفهم للتصوف إلى ملاحظة الجانب الخلقي إبرازا لأهمية ذلك الجانب، وقد أقر بهذه الحقيقة الإمام ابن القيم- رحمه الله-؛ إذ يقول: الدين كله خلق. فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين. وكذلك التصوف، قال الكناني: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف [4].

ورعيا لتلك الأهمية أوجب الشيخ- رحمه الله- أن يتعلم من التصوف مقدار ما يجب التخلق منه من الصفات المحمودة وما يحرم من الصفات المذمومة[5] . ويسمي العلم الذي يعتني بالقلب في رسالته "طريق الجنة" بعلم السر، ويرى طلبه فريضة، وفي هذا يقول- رحمه الله-: يا أخي إن العلوم التي طلبها فريضة على كل مسلم ثلاثة:

1- نقل بواسطة التصوف في المغرب وإفريقيا: أصول الوحدة الروحية (ص:16).

2- الأدب المفرد (ص:118).

3- خلق المسلم (ص:7).

4- مدارج السالكين (2/294).

5- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي كتاب علوم المعاملة (1/241).

علم التوحيد، وعلم الشريعة، وعلم السر، ونعني به ما يتعلق بالقلب ومساعيه[1] .

ومن هنا اكتسب جانب الأخلاق في رسائل الشيخ أبعادا كبيرة حيث كرّر الحديث عنها في معظم رسائله. وينطلق الشيخ- رحمه الله- من القلب باعتباره أهم دائرة تتمحور حولها الأخلاق، يقول ابن القيم: إن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس.....، والنفس من جند القلب ورعيته. وهي من أشد جنده خلافا عليه وشقاقا له. ومن قِبلها تتشوش عليه المملكة. ويدخل عليه الداخل.[2].

يقول الإمام الغزالي رحمه الله مبرزا مكانة القلب ومستوى تأثيره: "فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى ،وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم"، إلى أن يقول رحمه الله: "فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين"[3].

لذلك احتل القلب في رسائل الشيخ موقعا معتبرا، وقد برز ذلك في رسائله من خلال الأبواب التي خصصها للحديث عن التزكية، يقول مثلا في رسالته المعنونة

1- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي رسالة طريق الجنة (2/89).

2- مدارج السالكين (2/338).

3- إحياء علوم الدين (3/56).

بـ"طريق الجنة": "ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه، فإنه أعظم خطرا وأدقها أمرا وأشقها إصلاحا لاعتبار خمسة أمور:

**الأول:** قوله تعالى ﴿يعلم ما في أنفسكم﴾[1].

**الثاني:** قوله- صلى الله عليه وسلم-: " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم، وإنما ينظر إلى قلوبكم[2].

**الثالث:** أنه ملك، والأعضاء تبع له إذا صلح صلحت وإذا فسد فسدت.

**الرابع:** أن القلب خزانة كل جوهر كالعقل والعلم، فحق لمثل هذه الخزانة من أن تصان عن الأدناس.

**والخامس:** إن تأملته تجد له خمسة أحوال ليست لغيره:

1 – لا يقصد الشيطان والملك إلا إليه.

2 – أن الشغل له أكثر، وهو معترك العسكريين: الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، وهو أبدا بين تحاربهما.

3 – أن الخواطر له كالسهام، ولا تزال تقع فيه ليلا ونهارا لا تقدر على منعها.

4 – أن علاجه عسير لأنه غائب عنك.

5 – أنه أسرع انقلابا من القدر في غليانها" [3].

فإصلاح القلب هو الذي سيرتقي بالإنسان إلى مراتب عالية من منازل العبودية، ومن هنا أولى الشيخ عناية كبيرة لبيان المعاني التي تصلحه والآفات التي تفسده،

---

1- سورة البقرة (آية 235).

2- صحيح مسلم (رقم 2564) لكنه أخرجه بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

3- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة طريق الجنة (ص: 99 - 100).

يقول- رحمه الله-: "فإن قلت إن أمر هذا القلب لمهم جدا فأخبرنا عن المعاني التي تصلحه وعن الآفات التي تفسده عسى أن يوفق الله للاجتهاد في العمل بذلك، فاعلم أن علماء الآخرة، قد ذكروا من نحو سبعين خصلة محمودة، وتحتها أضدادها مذمومة .....، ونحن نذكر لك الآن الأربعة التي لا بد من ذكرها في علاج القلب فهي من مداحض العابدين، وأربعة في مقابلتها فيها انتظام العبادة وإصلاح القلب، فالآفات الأربع: الأمل، والاستعجال، والحسد، والكبر، فهذه أصل فساد القلب، وأما المناقب التي هي أضدادها: فقصر الأمل والتأني في الأمور، والنصيحة للخلق، والتواضع، فهذه أصل صلاح القلب فابذل المجهود في التحرز من تلك، والتحصيل لهذه، فتكفى المؤون وتظفر بالمقصود إن شاء الله عز وجل"[1].

ذكرها في هذه الرسالة مجملة، وأعاد ذكرها في رسالة "عمدة العلماء" بتفصيل أكثر؛ حيث أورد في ما يتعلق بصلاح القلب عشر صفات منجيات، ويقابلها عشر صفات مهلكات، عد من المهلكات: العجب، الكبر، الغضب بالباطل، الحسد، البخل، الرياء، حب المال للافتخار، حب الجاه، الأمل، إساءة الظن بالمسلمين، ثم قال عقب ذكرها: فهذه العشرة من المهلكات من أصول مذمومات الأخلاق، فمن خلعها من صدره هدم فروعها بإذن الله.

ثم ذكر صفات القلب المنجيات: التوبة من جميع الكبائر والصغائر، الإخلاص، الصبر، التوكل، التفويض، الرضى بقضاء الله وقدره، التقوى، الخوف، الرجاء، وختمها بقوله: فهذه العشرة المنجيات من أصول محمودات الأخلاق، ومن أثبتها في قلبه أثبت فروعها بإذن الله تعالى، وبالله التوفيق[2].

ويلحظ القارئ تنوع أسلوب الشيخ - رحمه الله - في تناول أحوال القلب، ففي رسالته عمدة العلماء أورد كل صفة من صفات القلب منجية كانت أو مهلكة بدليل من الكتاب والسنة[3] ، وفاء لمنهجه الذي بينه في مقدمة رسالته "إفحام المنكرين"،

1- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، رسالة طريق الجنة (ص: 100-99).

2- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الأول، رسالة عمدة العلماء (ص:301 - 303).

3- فيه من صفحة 301 إلى صفحة 309.

حيث قال: "لو كنتم من أهل البصائر لعلمتم أني ما أمرت الناس شيئا إلا ببيان، والدليل على أن ذلك الشيء مأمور به، وما نهيت شيئا إلا مع بيان والدليل على أن ذلك المنهي منهي عنه، وهذا ظاهر لأهل البصائر ممن كان معي"[1] .

وفي رسالة علوم المعاملة، تطرق إلى بيان حقيقة كل صفة من صفات القلب، فقد قرر أن الكبر في حقيقته ينقسم إلى باطن وظاهر، الباطن هو خلق في النفس، والظاهر عمل يصدر من الجوارح....، والأعمال الصادرة من خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى.[2] ، إشارة منه- رحمه الله- إلى ظواهر سلوكية قد تتولد من صفة خلقية مستقرة في القلب، "فالعجب مثلا يدعو إلى الكبر ونسيان الذنوب واستعظام العبادات ونسيان نعمة الله والاغترار بالنفس والأمن من عذاب الله واعتقاد المنزلة عند الله وتزكية النفس بالعقل والرأي والعلم، فهذا وأمثاله من آفات العجب"[3]. وبهذا تتكامل رسائله في رسم صورة واضحة لحقيقة التصوف الذي يدعو إليه - رحمه الله -.

## المعلم الثالث: القدوة " الشيخ المربي".

لم يدع علماء الإسلام وسيلة تربوية نافعة تفيد السالك في منازل سيره إلى الله- عز وجل- إلا تناولوها وبينوا موقعها في مقامات السلوك؛ ذلك لأن الناس أصناف، وكل صنف تتلاءم معه وسيلة من الوسائل طبقا لخصائصه النفسية والفكرية.

وعند البحث عن الوسائل التي اتخذها الإسلام أو وجّه إليها في منهجه التربوي لاكتساب الأخلاق الإسلامية، تنكشف لنا مجموعة من الوسائل، منها ما يأتي:

- **الوسيلة الأولى:** التدريب العملي والرياضة النفسية.

- **الوسيلة الثانية:** الغمس في البيئات الصالحة.

1- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الأول، رسالة إفحام المنكرين (ص: 179).

2- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الأول، رسالة علوم المعاملة (ص: 342 - 344).

3- ختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الأول، رسالة علوم المعاملة (ص: 342 - 344).

- **الوسيلة الثالثة:** القدوة الحسنة.

- **الوسيلة الرابعة:** الضغط الاجتماعي من قبل المجتمع المسلم.

- **الوسيلة الخامسة:** سلطان الدولة الإسلامية بروادعها وعقوباتها ومرغباتها ومكافآتها [1].

والذي يهمنا من هذه الخمسة، هو القدوة الحسنة، التي تعكس المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل.

والإسلام اعتبر القدوة الحسنة وسيلة من وسائل تربية المجتمعات المسلمة نحو بلوغ الكمال في القيم والفضائل، ومن هنا جاء التوجيه القرآني للصحابة بأن يجعلوا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قدوة حسنة لهم يقتدون به في أعماله وأقواله وأخلاقه، وكل جزئيات حياته ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [2].

ويؤكد أبو حامد الغزالي أهمية المربي، ويضرب لذلك مثلا محسوسا يقرب إلى الأذهان تلك الأهمية فيقول- رحمه الله-: "أن يكون له -أي للمريد السالك- مرشد ومرب ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية أن يكون المربي كالمزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجرا أو نباتا مضرا بالزرع قلعه وطرحه خارجا، ويسقي الزرع مرارا إلى أن ينمو ويتربى ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لا بد للسالك من مرشد مرب البتة، لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلا لهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نوابا عنه ليدلوا الخلق إلى

1- الأخلاق الإسلامية، أسسها (ص: 207 - 208).

2- سورة الأحزاب (آية 21)

طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة ، فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة"[1].

وقد حظي موضوع القدوة باهتمام كبير لدى السادة المتصوفة؛ حيث وجهوا المريد السالك بأن يسير ضمن نظام تربوي محكم تحت إشراف الشيخ المربي أو المرشد الكامل، مما منح موضوع القدوة أهمية كبيرة برزت بشكل جلي في حديث الشيخ عن حقيقة التصوف ومعانيه.

وقد عقد- رحمه الله- لموضوع القدوة فصلا خاصا سماه " فصل في أصل التربية والمشيخة" استهله بالتأريخ لمسألة المشيخة، وأنها خضعت لناموس التدرج، حيث قرر- رحمه الله- أن المشيخة لم تكن مألوفة من السلف الأوائل ثم ظهرت في الخلف، يقول رحمه الله: "فاعلم أن الأوائل لم يكن لهم ترتيب في المشيخة معروف، ولا اصطلاح في السلوك مألوف، وإنما كان عندهم الصحبة واللقاء ، فكان الأدنى منهم إذا لقي الأعلى استفاد برؤيته أحوالا...، فلما غلب الخبط على النفوس والتخليط على القلوب ظهر متأخرا فيه بالاصطلاح في الرتبة وترتيب المشيخة على ما هو معلوم من شأنهم مستندين لما ذكرنا من قوله تعالى: ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾[2] ، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه فيعطي كلا ما يليق به إذ قد أوصى واحدا بقوله: "لا تغضب "[3] وقال لغيره: "قل ربي الله ثم استقم "[4] وقال لآخر: "لا يزال لسانك رطبا بذكر الله "[5]، وخص أقواما بأذكار وعلوم، وقال لعبد الله بن عمرو: "صم وأفطر "[6]..... إلى غير ذلك من وجوه التربية..، ثم جروا في ذلك على مقتضى العلم والحقيقة، فلم يهملوا أخذ العهد قصد التوثيق في التزام خصال التقوى مستندين بحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال فيه عليه الصلاة

1- خلاصة التصانيف في التصوف ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص: 112.

2- سورة لقمان (آية 15).

3-صحيح البخاري (رقم 6116).

4- سنن الترمذي (رقم 2410).

5- سنن ابن ماجه (3793).

6- صحيح البخاري (رقم 1915).

والسلام: "بايعوني على أن لا تشركوا شيئا " الحديث [1]، " [2].

وعند البحث والتأمل والرجوع إلى المصادر التي عالجت المسألة، يتبين أن الشيخ عثمان نقلها بتمامها من الإمام زروق من كتابه "عدة المريد الصادق" دون مناقشة أو تعقيب، مما يوحي بتسليمه واعتماده لما قرره الشيخ زروق فيها.

وتعرف المسألة عند المتأخرين بالتشييخ، وأخذ العهد، أو التصوف الطرقي، فقد جرى بشأنها خلاف بين السادة المتصوفة أنفسهم، حيث يرى الشيخ زروق من علماء الصوفية الذي عني بتنقيح التصوف مما علق به من البدع ودعوة الناس إلى نبذها -حتى لقب في عصره بالمحتسب-، أن التصوف الطرقي وأخذ العهد من الشيخ المربي له أصل في الشرع، ولكنه ليس شرطا في سلوك طريق الصوفية، إذ لم يكن للأوائل هذا الترتيب المعروف في المشيخة، وإنما كان عندهم الصحبة واللقاء، فلما تبدلت الأحوال بحدوث الخبط على النفوس والتخليط على القلوب لجأ الناس إلى ترتيب المشيخة وأخذ العهد، وتربية كل أحد بكل ما يليق به، ثم أورد الشيخ الأدلة من الكتاب والسنة تدعم هذا الاتجاه الحادث بعد انقضاء قرون السلف الأوائل[3].

وقد دافع شهاب الدين السهروردي في كتابه "عوارف المعارف" عن ارتباط التصوف بالمشيخة، ويستند في تأصيل ذلك إلى حديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- : "والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم أن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة "[4]، يقول معلقا على الحديث: وهذا الذي ذكره الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده

---

1- صحيح البخاري (رقم 18).

2- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، أصول الولاية وشروطها (ص: 14).

3- يراجع كتابه "عدة المريد الصادق" (ص:54 - 56).

4- شعب الإيمان (رقم 405) أخرجه بلفظ: "ألا أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله عز وجل على منابر من نور يكونون عليها ". قالوا: من هم؟ قال: " الذين يحببون عباد الله إلى الله، ويحببون الله إلى عباده....إلخ، وأخرجه صاحب كنز العمال علاء الدين بنفس اللفظ، ونبه على ضعف بعض الرواة: "وواقد ويزيد ضعيفان" رقم الحديث(8459).

حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله.

ويبين وجه الاستدلال بالحديث بقوله: "فأما كون الشيخ يحبب الله إلى عباده فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم....، ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية، ولاح فيه جمال التوحيد، وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾. ثم يقرر رحمه الله أن رتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله" [1]. ومن هنا ندرك أن سلوك طريق التصوف عند الإمام السهروردي لا يتحقق إلا مع الشيخ المربي .

وقد كانت مثار خلاف -أيضا- بين علماء الأندلس وكثر فيها القيل والقال؛ مما حدا بالإمام أبي إسحاق الشاطبي صاحب "الموافقات" و"الاعتصام"، وغيرهما من الكتب النفيسة إلى توجيه سؤال لشيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد، خطيب جامع القرويين بمدينة فاس، فكان نص السؤال: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ لزاما شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟

فكتب إليه الشيخ ابن عباد ما خلاصته: "الذي أراه أن الشيخ في سلوك طريق التصوف على الجملة أمر لازم لا يسع أحدا إنكاره، وكأن هذا من الأمور الضرورية في مجرى العادة، لكن الشيخ المرجوع إليه في السلوك، ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية، وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه منهم من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس، وأما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه،

1- عوارف المعارف (1/ 94 - 103)، بتصرف، الباب العاشر في شرح رتبة المشيخة.

وتقيده به من باب أولى، وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

أما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حجب أنفسهم كثيفة جدا، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مزمنة وأدواء معضلة من مرض الأبدان فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره، وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق أئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم، ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم كالحارث المحاسبي وأبي طالب المكي وغيرهما من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها وسوابقها ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة – أي المسلوكة- التي انتهجها أكثر السالكين وهي أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم، والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم ببعض، ويحصل لهم بسبب التلاقي مزيد عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد.. ، ثم يصف لنا الشيخ -رحمه الله- حال زمانه وهو يلفت الانتباه إلى مراعاة الصفات المعتبرة في الشيخ المربي: والظاهر أن شيخ التربية في هذه الأزمنة متعذر، ووجوده أعز من الكبريت الأحمر، بل وكذلك أيضا شيخ التعليم؛ لأن كثيرا ممن يشار إليه ويعتمد عليه من المنتسبين إلى هذا

الطريق، لم يتصور معنى التصوف، ولم يعثر له على حقيقة فضلا عما وراء ذلك، ولا أدري أي المصيبتين أعظم: فقد الشيخ المتحقق، أو عدم التلميذ الصادق، فإننا لله وإنا إليه راجعون" [1].

والإمام الغزالي رحمه الله لما عدد الصفات المطلوبة في المرشد، انتهى إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها الشيخ ابن عباد، وفي هذا يقول رحمه الله: "فالمرشد هو الذي قد خرج من باطنه حب المال والجاه، وتأسس بنيان تربيته على يد مرشد كذلك، وهلم حتى تنتهي السلسلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذاق بعض الرياضيات كقلة الكلام والأكل والنوم، وكثرة الصلاة والصدقة والصوم، واقتبس نورا من أنوار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واشتهر بالسيرة الحسنة والأخلاق المحمودة من صبر وشكر وتوكل ويقين وطمأنينة وسخاء وقناعة وأمانة وحلم وتواضع ومعرفة وصدق ووقار وحياء وسكون وتأن وأمثالها، وتطهر من الأخلاق الذميمة كالكبر والبخل والحسد والحقد والحرص والأمل الطويل والطيش ونحوها، وسلم من تعصب المتعصبين، واستغنى عن علم المكلفين بالعلم المتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالاقتداء بمثل هذا هو عين الصواب ، والظفر بمثله نادر لا سيما في هذا الزمان" [2].

وبهذا يتبين أن التشييخ مسألة حادثة لم تكن معروفة ولا مألوفة عند الأوائل، وإنما ظهرت عند المتأخرين، واجتهدوا في القول بجوازها حسب ما تراءى لهم من الأدلة مع تنبيههم على ندور من تتوفر فيهم شروط الشيخ المربي، والذي يظهر من كتابات الشيخ عثمان في المسألة موافقته للمتأخرين، تجلى ذلك في اهتمامه ببيان الضوابط والآداب التي تلزم الشيخ المربي والمريد السالك [3]. وبهذا يكون الشيخ- رحمه الله- قد انتظم في هذه المسألة فيما يقرر الشيخ عبد الواحد ابن عاشر في منظومته:

1- الرسائل الصغرى (ص: 91 - 103) بتصرف .

2- خلاصة التصانيف في التصوف (112) ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي .

3- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، المجلد الثاني، أصول الولاية وشروطها (ص: 16 وما بعدها).

يصحب شيخـاً عارف المسالك يقيـــه في طريقـــه المهـالـــك
يـــذكـــــــــــره الله إذا رآهُ ويصـــــــل العبـد إلى مولاه[1].

## الخاتمة.

بعد الجولة في الرسائل التي كتبها الشيخ في التصوف، يتبين لنا أنه تصوف يتسم بالتأصيل الشرعي، ويمكن إبراز ذلك فيما يلي:

- تمثله بقول الجنيد في كون التصوف مشدودا بالكتاب والسنة، وقد ظهر ذلك في عنايته بذكر الأدلة فيما تناوله من حقائق التصوف ومعانيه.

- اهتمامه بتصوف الرقائق والأخلاق، وقد تجلى ذلك في الرسائل التي عولنا عليها في بناء عناصر موضوع المقالة، وقد قرر- رحمه الله- أنه يجب على المسلم أن يتعلم من علم التصوف مقدار ما يجب التخلق منه.

- تقليله الاستناد إلى الإلهام والكشوف والمنامات في نقاشه وعرضه مسائل التصوف، ونكاد نجزم أنه في الرسائل التي قرأناها لم نصادف ولم نعثر على مسألة من مسائل التصوف استند في إجازتها إلى غير مصادر التشريع المعروفة.

- استفاضة نقله من كتب الإمام زروق، وخاصة كتاب "عدة المريد الصادق"، فمرة يحيل على الكتاب، ومرة بدون إحالة، كما وقع في موضوع الشيخ المربي، ويبدو منه -رحمه الله- تأثره الشديد بالإمام زروق في تأصيل مسائل التصوف بالأدلة الشرعية، وقد استطعنا تصحيح بعض النصوص من رسائله عند مقابلتها بما يماثلها من "عدة المريد الصادق".

- تأثره بأبي حامد الغزالي، وخاصة كتابه "إحياء علوم الدين"، فقد رجع إليه كثيرا وخاصة في موضوع الأخلاق ورياضة النفس.

1- الدر الثمين والمورد المعين (2 /194).

- يلحظ القارئ في كتب ورسائل الشيخ -رحمه الله- جودة التقسيم للمسائل بما يعين على فهمها واستيعابها، ففي موضوع العبادات وأهمية الاهتمام بها في السير إلى الله عز وجل، يرسم -رحمه الله- تقسيما ثلاثيا لها ضمن وحدة الموضوع: الأول: البواعث على العبادة، الثاني: العوارض الشواغل عن العبادة، الثالث: دفع القوادح في العبادة [1].

- كشف لي الاحتكاك المتواضع بكتابات الشيخ- رحمه الله- حاجتها إلى مزيد من العناية والتحقيق.

## المصادر والمراجع

**القرآن الكريم.**

**كتب السنة.**

- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

- صحيح مسلم، للإمام مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3) وإبراهيم عطوة عوض، المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395هـ - 1975م.

- سنن أبي داوود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، المحقق: محمد

1- مختارات من مؤلفات الشيخ بن فودي ، المجلد الثاني ، رسالة طريق الجنة (ص: 107 وما بعدها)

محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .

- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، النسائي (المتوفى: 303هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، 1406هـ – 1986م.

- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي .

- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م .

- كنز العمال، لعلاء الدين علي بن حسام الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: 975هـ) المحقق: بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م

**كتب الفقه .**

- الدر الثمين والمورد المعين، شرح الشيخ محمد بن أحمد بن محمد الشهير بميارة على نظم المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، لعبد الواحد بن عاشر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة: 1373هـ - 1954م .

**كتب التزكية.**

- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله، حقق أحاديثه وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1418 هـ - 1997م .

- الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تعريف العلامة المدقق السيد محمد رشيد رضا، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد الغزالي، طبعة دار الفكر 2003م.

- الأخلاق الإسلامية وأسسها، للشيخ عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط: 2015م.

- التصوف من الإيمان إلى الإحسان، علي نوري طوباش، دار الأرقم، إستانبول 2016م.

- الرسائل الصغرى، للشيخ ابن عباد الرندي، كانون الثاني – شباط 1957م.

- خلق المسلم، للشيخ محمد الغزالي. دار الكتب الإسلامية، القاهرة .

- مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فوديو، طبعة دار اقرأ للطباعة والنشر.

- مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

- مدارج السالكين، للإمام ابن القيم، دار الكتاب العربي، ط: 2001م.

- عدة المريد الصادق، للإمام زروق، تحقيق الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم 2006م.

- عوارف المعارف، للإمام العارف شهاب الدين أبي حفص السهروردي المتوفى سنة 632هـ، تحقيق وضبط: أحمد عبد الرحيم السايح، والمستشار توفيق علي وهبة، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م .

**كتب التاريخ.**

- الإسلام والدولة في إفريقيا جنوب الصحراء، الفكر السياسي عند عثمان ابن فودي خلال القرن 19م، بهيجة الشاذلي، مركز الدراسات الصحراوية. ط: 2015م.

- إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور لمحمد بلو، الناشر: الحاج طن اغيط ابير يرو .

**المجلات .**

مجلة العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، العدد الثالث: جمادى الأولى 1442 هـ - الموافق لشهر يناير 2021م، موضوع العدد: التصوف السني بإفريقيا: معالم وأعلام.

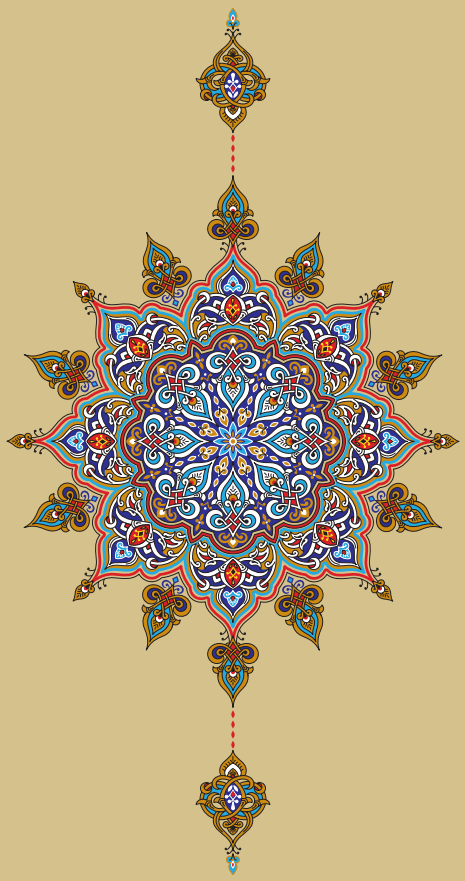

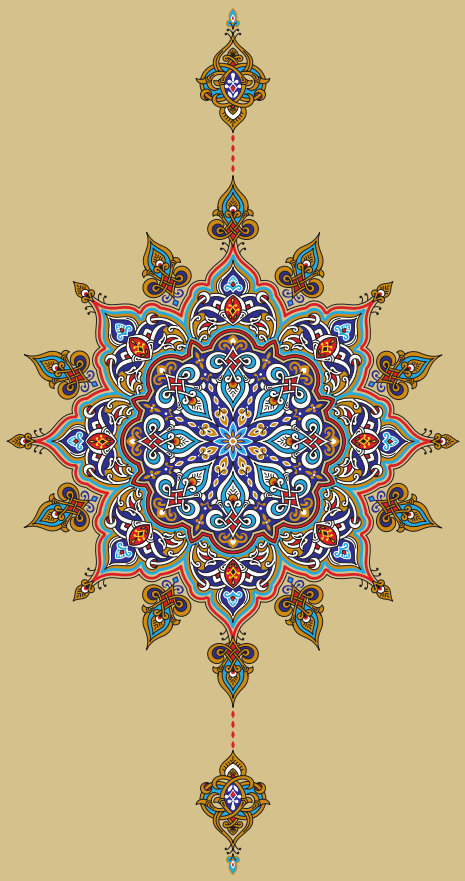

# ديوان العدد